بخيل الجاحظ - رؤية تحليلية في مؤلفه "البخلاء" (البُخل – الشح – التقتير)

د. زينب عبد الكريم
الجامعة المستنصرية/ كلية الآداب

Al-Jahiz' al-Bukala "Misers"- Analytic View

Dr. Zainab abdel kareem
University of al-mustansirya / College of Arts
D.zainab61@yahoo.com

Abstract

This research is a serious attempt to probe the thought of Al-Jahiz and read his implied opinions and ideas. He either expressed them explicitly or implicitly, told a story of social critic, author, philosopher and wise man, who wished his society to be better and purer, and to live typically. So, that Arabian thinker and Mu'tazili writer told accurately about many matters. For instance, he wrote a book about "The Misers", in which he told many stories about misery and misers, and he analyzed that disadvantage feature and considered it accidental and not proper for the Arabs who were well-known for their generosity, openhandedness, courage and sacrifice. In all his writings, he rested on Quran, Prophetic Tradition and Arabic poetry and prose.

Rarely could any nation have an author or a writer like Al-Jahiz, who had an intellectual system enriching the Arabian culture by social reaction, affection and influence among various cultures.

الملخص:

فهذا البحث يُعدُّ خلاصة جدِّية لسبر أغوار المفكر العربي (الجاحظ) ومحاولةً لقراءة ما وراء سطورهِ من أفكارٍ وآراءٍ، صرح بها حيناً ولمَّح إليها حيناً آخر، إلا أنها جميعاً تحكي قصة ناقدٍ وأديبٍ اجتماعي وفيلسوف حكيم يُريد لمجتمعه الأفضل والأنقى والعيش المثالي لذا، فهذا المفكر العربي والأديب المعتزلي حكى بدقةٍ عن كثيرٍ من الأمور، وما بين أيدينا حكاياته عن سمّة البخل والبخلاء وأخبارهم وحديثهُ عن رذائل هذه السمّة بوصفها دخيلة على العربي الذي لا يليق به غير الكرم والعطاء، والكرم شجاعةً فالمعطاء شجاعٌ إذ يجود بالنفيس من أجل الآخر، وقد استند في حديثه للنص القرآني، والحديث النبوي الشريف، والمأثور في كلام العرب شعراً أو نثراً، وهذه عادته في جميع مؤلفاته.

إنَّ من النادر أن يُقَدَّر لأمة من الأمم كاتب أو أديب وشخصية ثقافية موسوعية مثل الجاحظ، تلك المنظومة الفكرية الفذة بنزوعه إلى إثراء الثقافة العربية بما يؤكد أصالتها وعمق تأثيرها بالثقافات الأخرى، وقد قدم لنا من خلال صفحات كتابهِ البخلاء صورة واضحة لمعالم البخيل وأحوالهِ وهي صورة مرفوضة تماماً شكلاً ومضموناً في مجتمعنا العربي الكريم، لكنها تثبت قضية التفاعل الاجتماعي والتلاقح الثقافي الحضاري مع الحضارات الأخرى التي أنتجت بعض السلبيات ونقلت خصالاً للمجتمع العربي غريبة عنه بعيدةً منه والبخل واحد منها.

ونرى الجاحظ منظِّراً اجتماعياً وهو يعزم القول والتحقيق والتمحيص في أمرٍ يخص مجتمعهَ وعروبتهُ..

حدّ البخل:

البخل واحد من المفاهيم الكثيرة التي أتفق عليها العلماء والفلاسفة والنقاد على أنه سمّة أو لَنقُل طبيعة مرضية قد تُصيب بعض البشر وتتلبسهم إلا أنها طبيعية غير محببة تنتمي بوجه أو بآخر إلى الخصال اللاأخلاقية وإلى الرذائل لا الفضائل، وكل شخص أتسم بها أو أُبتليَّ فيها كان الله في عون أهلهِ والمقربين إليه ومريديه قبل أن يكون في عونهِ إذ هو يُصدر كل أفعال البخل عن قناعةٍ ورضا وتأثير ذلك يقع سلباً على المحيطين به.

وقد تختلف رؤية البعض لهذه السمّة كلاً بحسب ثقافتهِ وطريقة تعامله مع الآخر وبحسب المعايير الاجتماعية السائدة في بيئته، فالبخل لا يكون بخلاً بالمال فقط أو بالماديات، بل أنه ينسحب إلى الأشياء المعنوية المحسوسة غير الملموسة كالمشاعر لأن البخيل بخيلاً في مشاعرهِ وكلامهِ وطريقة تعبيره عما يجول بخاطره للآخر، هذا من ناحية ومن

أخرى قد ينسحب البخل ليطال العلم، فقد يعاني أحد ما من البخل العلمي أي أن يعاني من أنانيةٍ تفرض عليه البخل بإعطاء معلومة أو إسداءِ رأيٍّ أو نصيحة وجعل الآخر على دراية بها، وقد يكون دافع ذلك احتكار المعرفة لمصالحهِ من أجل الانتفاع بها مادياً أو معنوياً، وقد يمنع البخل المصاب به من تقديمه العون لمن يحتاج المساعدة والسند إلا أنه يمتنع.

إنَّ مفهوم البخل يتقاطع مع مفهوم التقتير والشحّ أو الحرص تلك المفردة التي غالباً ما تستخدم من البخيل محاولةً منه تجميل الصورة أمام الآخر، إلاَّ أن قضية البخل قد تمتد إلى أن الشخص البخيل قد يدعو للبخل ويروّج لهذه السمّة الرذيلة، ورد قوله تعالى: **﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**(*) وَورد قوله أيضاً: **﴿لاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾**(*).

وكلا الآيتين تحملان المعنى ذاته وتحثّان بني آدم على الكرم ونبذ البخل والعطاء والبعد عن الاسراف والآخذ يقع بين الاسراف والتقتير، لقد جعل الله ﷻ عقاب البخيل كمن يُطوقُ ويُخنق ببخلهِ يوم الحساب، وهذا ليس بالأمر الهين، ووجود عقاب يعني أن هناك ذنب أو خطأ وبالنتيجة فالبخل ذنبٌ.

أما عن مصطلح "التقتير" فهو وجهٌ آخر من أوجه البخل والشحُّ كذلك وهي جميعاً عادة اجتماعية سيئة لا يسوغها المجتمع والمجتمع العربي تحديداً ولا يتواصل مع المتصف بها، ولعل الجاحظ كان محقاً في الحديث عنها ونقدها ونقد أصحابها إذ أنه لم يكن ناقداً وأديباً بل كان بآراءهِ وكتاباتهِ وما ألفه للمكتبة العربية مُصلحاً اجتماعياً مهماً لا يمكن التغاضي عن وجهة نظرهِ وعلميتهِ التي تنصَّبُ في خدمة المجتمع والفرد إلى وقتنا الحاضر وإلى ما شاء الله لهذه البسيطة من امتداد.

رؤية البخيل عند الجاحظ:

بحسب ما يرى المجتمع أن البخل سمّة اخلاقية غير مرغوبة بل هي سلبية يسعى الكثيرون على الابتعاد عنها وعدم الاتصاف بها حتى البخلاء أنفسهم قد ينفون عنهم هذه التهمة ويتعذرون بأنهم ليسوا بخلاء ولكن من باب الحرص والتدبير وديننا الحنيف نبذ هذه السمّة في أكثر من موضع فالله ﷻ كريمٌ معطاءٌ يريد لبني البشر أن يتصفوا بالعطاء والكرم ويتحلَّوا بشجاعة العطاء، فأن تعطي وتمنح الآخر شيئاً منك عن طيب خاطر هذا جيد يحثُّ عليه الدين والأخلاق ولكن الأفضل هو ذلك الذي يعطي ويهب الآخرين فوق طاقته وبشكل يتجاوز حدود قابليته وطاقتهِ ويجود بما ليس لديه وهؤلاء من جاء بهم قوله تعالى: **﴿يُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾**(*)، وهنا تكمن القوة في العطاء والشجاعة في الكرم فالدين والأخلاق تحثنا على روحية العطاء والتعايش مع الآخر بتعاون، وأن يمنع الغني عطفهُ ولطفه الفقير قبل أن يمنح عطاءهُ المادي وبهذا قد نسهم في خلق معادلة التوازن الاجتماعي إذ أن المال وديعة لدى الإنسان ينبغي عليه أن يتصرف فيه بحكمة وأن ينفق للمحتاج والفقير إذ جاء في ذلك قوله تعالى: **﴿أَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾**(*) وأيضاً قوله: **﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾**(*).

إنَّ البخيل تتجسد صورته في أعماله وتصرفاتهِ حتى إنها ترتسم على ملامحه فالبخل يشكل قلقاً وأرقاً لصاحبهِ إذ هو على طول مسافة الوقت يعُد أمواله ويحسب ما لديه ويفكر في كيفية إنماءها والحفاظ عليها وعدم نقصانها وهذا هو المرض بعينه والعياذ بالله، في حين أن ملامح الإنسان المعطاء الكريم السخي تتسم بالسماحة واللطف والرقّة والرضا والاطمئنان النفسي والشكر على الدوام.

(*) الحشر: 8.
(*) آل عمران: 180.
(*) الحشر: 8.
(*) الحديد: 7.
(*) النور: 33.

وقد وردت معانٍ كثيرة للبخيل في النص القرآني من مثل قولهِ تعالى: **﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ*وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ*وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً*وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً﴾**(*)، فالبخيل لا يؤذي الآخرين قدر إيذاءه لنفسه وفي ذلك جاء قوله تعالى: **﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء﴾**(*).

ولعل بعض الفروض الدينية الواجبة على المسلم أداءها كالزكاة والخمس والكفارات والصدقة وغيرها هي فروض أوجبتها الشريعة الإسلامية للفقراء والمساكين واليتامى وأبناء السبيل وغيرهم ممن يستحق الإلتفاتة الكريمة والإحسان، مساعدة منا بنو البشر في الأخذ بيد المحتاج وعونه على السير الصحيح في طريق الحياة الشاقة، وقد ورد في الحديث الشريف ما يعيننا في هذا المجال من قبل قول رسول الله 6 ((البخيل من بخل بما افترض الله عليه))[1]. وهذا تأكيد على أهمية المعونة والعطاء للمحتاجين.

إنَّ نبذ البخل وتخليص النفس الإنسانية من رذائله وتبعاته يُعدّ هدفاً سامياً ينبغي أن نسعى العمل به جميعاً، فنبذه يمنح الحياة الإنسانية روح التعاون والعطاء وينمي الفضيلة بين أفراد المجتمع إذ تتمجد صورة الكرم في تعاون الإنسان مع أخيه الإنسان على الضرّاء قبل السرّاء سعياً وراء تأسيس المدينة الفاضلة أو القرية المثالية، وهذا ما سعى إليه الجاحظ.

شخصيات بخلاء الجاحظ:

امتاز أسلوب الجاحظ بالموضوعية والشمول والنظرة المتعمقة، وهو حين يورد أسماء لشخصيات أدبية أو فلسفية يُعطي سرداً وافياً عنها ويعرف بها للقارئ حتى تكون الصورة متكاملة الأجزاء أمامهُ، مثل ذلك ما أورده عن ذكر ((محمد بن يسير)) إذ جاء فيه قوله: ((هو أبو جعفر محمد بن يسير الرّياش مولى بني ريّاش))[2] تساعد من شعراء البصرة المعاصرين للجاحظ، يُكثر من ذكره ورواية شعره على أنه لم يكن من شعراء الطبقة الأولى، ولكنه كان في شعره يصور النوازع الاجتماعية المختلفة إلى حدٍ ما، فمرّة هو ماجن في شعره، ومرّة زاهد متنسك عابد [3].

وقد أورد له الجاحظ بعضاً من شعره، جاء فيه حديثٌ عن العلم وضرورة التعلم وقراءة الكتب والتحفيز على ضرورة الالتزام بالنزعة العلمية والبحث عن أنواع مختلفةٍ من العلم والمعرفة وقراءة الكتب، مما جاء قوله:

أمـــا لـــو أَعـــيِّ كـــلَّ مـــا أســـمَعُ وأحفَـــظُ مِـــن ذاك مـــا أجمـــعُ
وأَحصـــرَ بـــالعيِّ فـــي مجلســـي وعلمـــي فـــي الكُتـــبِ مســـتودعُ
إذا لـــم تكـــنْ حافظـــاً واعيـــاً فجمعـــكَ للكتـــبِ لا ينفـــعُ

لقد كان ابن يسير حاثاً على العلم والإفادة من الكتب والصبر على المعلومة الصعبة حتى تلين وتسهل وله نظرة فلسفية. واشتهر (محمد بن يسير) بالبخل إذ يقال أنه يشرب النبيذ عند إخوانه ويستسقيه منهم ولعل هذا ما جعله يشتهر بالبخل ويُدرج ضمن بخلاء الجاحظ، وقد وردت هذه الإشارة في رسالة ابن التوأم [4].

وعن الشاعر المغمور ((مروان بن محمد)) المعروف بأبي الشمقمق، ويُعد من أعظم شعراء عصرهِ تعبيراً عن صورة الفقر آنذاك والعوز والحاجة وأكثرهم قدرة تصويرية لحالات المجتمع الأدنى والطبقات الفقيرة، وقد حاول تجسيد الطبقة الدنيا وطريقة عيشهم وظروفهم في أشعاره التي خرج بها أحياناً عن سلطان التقاليد الشعرية السائدة آنذاك أواخر العصر الأموي، وهذا الشاعر هو من موالي (مروان بن محمد) آخر خلفاء الأمويين نشأ في البصرة بالبخارية، وهي كما يُذكر أنها سكة في البصرة أسكنها (عبيد الله بن زياد) أهل بخارى الذين نقلهم من بخارى إلى البصرة، وبنى لهم في هذه السكة منازلاً

(*) الفجر: 17- 26.
(*) محمد: 38.
(1) سفينة البحار: 1/ 157.
(2) البخلاء: 292، 293، وأيضاً الاعلام: 8/ 15- 16، وسمط اللآلي: 1/ 104.
(3) المرجع نفسه، ص292، 293.
(4) المرجع نفسه، ص: 174.

فعرفت بهم[1]. وذُكر عن شاعرنا أنه كان قبيح الشكل، عظيم الأنف، أهرت الشدقين، ذو هيئة قبيحة غير محببة أو مقبولة[2]، لكنه كان أديباً ظريفاً وصعلوكاً لزم بيته[3]، وكان قد اتصف بالبخل الشديد وعن شعره فقد اتصف بالشعبية التي كان ينافس بها (بشار بن برد)، فضمن ما ورد من أخبار أبي الفرج الأصبهاني أنَّ أبا الشمقمق كان يُطالب بشاراً بالعطاء ويهددهُ بالهجاء إذا أمتنع[4]، وقد أورد الجاحظ نصاً جاء فيه عن الخطيب البغدادي أنه قال، قال أحمد بن منصور المروزي: ((قال لي الجاحظ –وأنا أقرأ عليه كتابه في البخلاء، وتذاكرنا ما دقق الشعراء فيه من ذم البخلاء: لا أعرف شيئاً أبلغ في الهجاء بالبخل من قول أبي الشمقمق))[5]. أي أن أشعاره في البخل كانت رائعة الصورة– ولكن للأسف لم يقع تحت أيدينا منها شيء.

إنَّ المتعارف عليه اجتماعياً أن لا أحد يذم الكرم والسخاء أو يلوم الكريم على عطاءه وحلو صنيعه في حين نجد الصورة معكوسة تماماً، فالبخيل مذموماً عند الناس وأهل بيته فهو بخيلٌ على نفسه وعلى أهله وأصحابه وهذا يستوجب الذم والنقد علماً أن البخيل في كثير من الأحيان يتخذ من الحرص ستاراً لعيبه وقناعاً يختفي وراءه.

وورد ضمن بخلاء الجاحظ (الحفين بن المنذر) وهو أبو ساسان الحفين بن الحارث بن وعلّة الرّقاش، نسبةً إلى رقاش وهي بطن من شيبان، من بكر من ربيعة، شاعر فارس سيد من سادات أهل البصر، في القرن الأول، وتُعد أسرته من أشرف الأُسر، منذ الجاهلية، وقد كان جده الحارث بن وعلّة [6]، رئيساً من رؤساء بكر، وقد ذكره الأعشى كما ذكر جده الثاني وعلّة[7]، وقد ورث بن المنذر مجد أسرتهِ مثلما ورد البخل عن جدهِ الحارث إذ تذكر الروايات قصة بخلهِ مع أبي كلده اليشكري الشاعر وهجاء أبو كلده له ومما رواه الجاحظ أن إمرأة تعرضت له فسألته كيف سُدْتَ القوم وأنت بخيلٌ لئيم؟ فيقال أنه أجابها أن سبب ذلك يكمن في سدادة الرأي وشدة الإقدام [8]، ومن هنا ذكرناه في هذا الموضع، وقد استشهد به الجاحظ وأورد أقواله في رسالة سهل بن هارون.

إنَّ شخصية ابن المنذر لا تخلو من موقف سياسي بوصفه أكبر رؤساء بكر آنذاك، وأظهر رجالاتها في البصرة[9]، ولكن ما كان يعيبه على الرغم من كل ذلك بخلهُ، وإن كان فيما بعد قد اختار له منزلة ما بين الشعراء يهاجيهم مثلما فعل مع أبي كلدة اليشكري[10]، ولعل الغريب في هذا الشاعر ليس بخله بل هجاءهُ لأقرب ناسهِ لابنه غياظ إذ قال فيه:

وُســـمْيتَ غياظـــاً ولســـتَ بغـــائظٍ عَـــدُوّاً ولكـــن الصـــديق تغـــيظُ
فـــلا حَفِـــظَ الـــرحمَنُ رُوحَـــكَ حيّـــةً ولا حـــيَّ فـــي الأرواحِ حـــين تقـــيظُ [11]

هذه بعض الشخصيات التي أوردها الجاحظ والتي كان لها موقفاً سياسياً ولها ثقلها الاجتماعي، إلا أن ما يعيبها هو البخل، تلك السمّة السلبية الرذيلة التي لا تريد أحد أن تُنسب إليه وإن كان يعانيها.

والجاحظ يُعدُّ مؤسساً اجتماعياً ومنظراً، ولعل دواعي تأليفه وتذاكره وحديثهُ عن البخلاء وهو جزء بسيط مما بحثه الجاحظ خلال مؤلفاته الكثيرة ومسيرته الطويلة، والتي تصب جميعاً في نهر الحياة والمجتمع، وفي البخلاء أورد كثيراً من الطوائف والقصص الممتعة عن البخل والبخلاء، وهذا من ميزّات أسلوب الجاحظ، إذ يقدم للقارئ الحقيقة المرّة الصعبة بأسلوب تهكمي لا يخلو من استهزاء وسخرية، فعلى سبيل المثال، ذكر الجاحظ عن أهل خراسان وقد خصّ بذكرهِ منهم

---

(1) ينظر: الكامل في التاريخ: 2/ 242.
(2) ينظر: معجم الشعراء للمرزباني 397.
(3) ينظر: البخلاء 345.
(4) ينظر: الأغاني 3/ 194.
(5) المحاسن والمساوئ 77.
(6) البخلاء:280.
(7) الكامل: 463.
(8) ينظر: البيان والتبيين: 2/ 136.
(9) ينظر: المرجع نفسه: 2/ 136.
(10) ينظر: البخلاء: 280- 281.
(11) الأغاني: 2/ 198.

أهل مرو أنهم يقولون للزائر وللجليس إذا طال جلوسه، تغديت اليوم، فإن قال لهم نعم، قالوا لو لا إنك تغديت لغديناك بغداءٍ طيب، وإن قال لهم لا، قالوا له، لو كنت تغديت لسقيتكَ خمسةَ أقداحٍ وبهذا هو المنتصر لأنه حفظ ماله من الإسراف كما يظن[1].

وفي حادثة مشابهة لأحد أبناء مرو أيضاً وهو أشدُ بخلاً من الأول إذ ذكر أنَّ أحدهم دخل منزلهُ ضيفاً ولمَّا جاء وقت الصلاة توضأ من كوزٍ خزفٍ، فقال له المروي الخراساني سبحان الله تتوضأ بالعذب من ماء البئر، ثم يخبرهُ بأنه قد أفسد ماء الكُوز بالملوحة [2]، أما حادثة الفتيلة والمسرجة فهي بحق تجسيدٌ صريح لبخل أهل خراسان الذي وصل إلى حد الأقتصاد بزيت المسرجة إذ أنهم يصرفون بشهرٍ كامل ما يُصرف بليلة واحدة[3].

وهناك العديد من القصص والحكايات التي سردها الجاحظ في بخلاءهِ التي قد تبدو أول الأمر من القراءة الأولى طريفة مسليّة إلا أننا لو تمعنا فيها لوجدناها لا تليق بخصال العربي وصفاته المعروفة وهي بلاء على المجتمع وتؤثر تأثيراً سلبياً على أفرادهِ لما للبخل من تبعات سلبية.

لاحظ قول أحد البخلاء يوصي عياله ((كلوا الباقلّى بقشوره، فإن الباقلى يقول: من أكلني بقشوري فقد أكلني، ومن أكلني بغير قشوري، فأنا الذي آكله! فما حاجتكم إلى أن تصيروا طعاماً لطعامكم، وأكلاً لما جعل أكلاً لكم؟))[4].

وإن التفاتة الجاحظ لتجسيد صورة البخيل ضمن مؤلفٍ خاص بطريقة لا تخلو من تندر وطرافة ولا تبتعد عن جديّة محفوفة بالألم الروحي من جرّاء إلتصاق هذه السمّة بأفراد كرّمهم الله عن بقية الأُمم إلا وهم العرب، نقول تلك الإلتفاتة لم تكن إلا كرماً منه وعطاءاً على رسم الصورة الحقيقية واضحة المعالم لسمةٍ قد لا نغالي إذا نعتناها بأنها غير إنسانية وينبغي أن يتجرد منها بنو البشر، ولم يبخل في رسم تلك الصورة واظهار قُبحها وسلبياتها ولم يدخر جهداً أو كفاءة، بل كعادته سخَّر ثقافته الفكرية وآثارهِ الأدبية الممتعة وكل طاقاتهِ الموسوعية في موضوع البخل والبخلاء، إذ هو بحق شيخ الكتاب والنقاد آنذاك، ومعروف عنه أنه ((عربياً في روحه ودمه وحياته : وكان يتعصب للعرب في كل شي حتى في الثقافة والأدب))[5] بل حتى في السمات الاجتماعية الشخصية غير المرغوب بها مثل موضوعة بحثنا هذا. وسخّر مؤلفاته وفكره في الدفاع عن العرب علناً أو ضمناً وثقافته لا فصال عليها حتى أن بديع الزمان الهمذاني كان قد خصص له مقاماً في مؤلفهِ "مؤلفات البديع" وأسماها "المقامة الجاحظية"[6]، وهذا دليلٌ وعيٌ على أهمية فكر الجاحظ ورُقي أسلوبه وموضوعاتهِ وعمق نظرته في التأليف والكتابة وحاجة المجتمع لمؤلفاته.

وفيما يخص موضوعة بحثنا فقد تحدث باسهاب عن شخصية البخيل ورسم صورة وافية المعالم فالكلام ملعبهُ وساحته وعلم البيان همّهُ الأكبر وديدنه وقد ترجم معانيه التي يريد بلغةٍ جعلها ثوباً لأفكاره وآراءهِ وما دعي إليه، وهو بمؤلفاته الكثيرة أرّخ للتاريخ ونقل المعرفة من الشفاهية إلى الكتابة والتدوين وجعلها مادة مقروءة، لا مسموعة مروّية قد يطالها النسيان والسهو فتضيع وتطوى، بل جعل المعلومة في متناول كل طالبٍ ومُريد بفضل تدوينه الأخبار والأشعار والنصوص والخطب والروايات وحكايات العرب معتمداً مبدأ التحقق والتثبت والمتابعة والتأكد من أحقية النص وبهذا هو فعلاً من نقل الأرث العربي من الشفاهية إلى التدوين فسجّل بذلك نقلة نوعية للخطاب العربي وإن كانت حركة التدوين معروفة قبلاً إلا أنها اتسعت وأخذت مداها على يديه، وكان له الفضل الأكبر في حفظ الكم الأكبر من المخطوط العربي، وعليه تبدو آثاره وكتاباتهِ مرآة عكست لنا أوضاع عصره وما كان فيه[7].

---

[1] ينظر: البخلاء: 17.
[2] ينظر: المرجع نفسه: 17.
[3] ينظر: المرجع نفسه: 19 وأيضاً 20، 21، 22.
[4] البخلاء: 79.
[5] الحياة الأدبية في العصر العباسي: 311.
[6] ينظر: مقامات البديع 38، المقامة الجاحظية.
[7] ينظر:الخطاب العربي وخصائصه عند الجاحظ، دراسة تحليلية 17.

لقد كان الجاحظ ((عالماً بالأدب، فصيحاً بليغاً، مصنفاً في فنون العلوم، وكان من أئمة المعتزلة، تلميذ أبي اسحاق النظام))[1]، وقد كسبته صلته بالنظام حرية الرأي والجدل والنقاش وأفاد من اعتماد فرقة المعتزلة صنعة الكلام فكان خير من يجادل ويناقش وينقد في أمور المجتمع كافة وظواهره الاجتماعية، والسياسية، والأدبية الفلسفية وحتى الطبيعية، والدينية أيضاً، لذا نجده يُسبر الغور في الحديث عن ظاهرة اجتماعية مهمة تستوجب التوقف عندها ودراستها محاولة إيجاد سبيلاً لتخليص المجتمع منها والحد من انتشارها، فالبخيل يسبب الأذى لنفسه ولأسرته التي قد تكون طوال الوقت بائسة حزينة تشكو العوز والفقر والخواء، والأسرة هي اللبنة الأساس في تكوين المجتمع والدين الإسلامي يجعل من الأسرة المقام الأول وأعلى الهرم ونواة التكوين إذ هي ديمومة الأستمرار وسرُّ الوجود، فإذا صح البناء صح المجتمع لذا ينبغي أن نتنبّه ونحرص أن تكون معافاة لا تشكو وجعاً أو وهناً، والبخل مرضٌ خطيرٌ يُطال المحيطين بالمصاب فالبخيل يعجزُ حتى أن يمَّد يدهُ ليعطي فقيراً إعترض طريقه، وهذا يخالف الشريعة والضمير ﴿**وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**﴾[*] من هنا جاءت أهمية كتاب الجاحظ (البخلاء) إذ أن البخل لا يقتصر على البخيل وأسرته وأهله بل على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل وكل الأشخاص الذين أوكّل الله بمسؤوليتهم على الميسورين وهو سائلهم عنهم يوم القيامة، من هنا فالبخل سمّة تهدم المجتمع وتخرب العلاقات الإنسانية بل وتقضي على القيم الاجتماعية والدينية. لذا هو آفة علينا التصدي لها، وعليه فكاتبه وحديثه على البخل والبخلاء بكل القصص الواردة فيه والأخبار ما هو إلا رسالة إنسانية موجهة عامة شاملة لكل مكان ولكل عصر بمحاربة البخل ومحاولة خلق مجتمعاً فاضلاً.

لقد ذكر الجاحظ أسماء البخلاء معروفين وقبائل مشهورة، من قبل الكندي وأخباره والخزامي ووصية بخيل لولدهِ، وسهل بن هارون وأخباره في كيفية تبريرهُ بخلهِ، وأهل خراسان ولِمَ عُرِفوا بالبخل[2]، إن هؤلاء وغيرهم برّروا بخلهم على أنه تدّبر وجعلوا الجود إسرافاً والأثرة جهلاً، وقد زهدَوا في الحمد وكَثْر ذَمهم[3].

وعمّا أورده الجاحظ عن رسالة "سهل بن هارون" التي ورد ضمنها عدّة أقوالٍ عن البخل والبخلاء تتشكل وكأنها قصص وحكايات، وهي عبارة عن ردودٍ وتفنيد مَن إتهم "الأحنف بن قيس" بالبخل والتقتير، وتضمن ذلك حججاً ودفاعاً لتفنيد التهمة ونفيها، بأسلوبٍ بليغ بيِّن وبإفصاح ظاهر ينم عن قدرة عقلية ومقدرة قولية على المحاججة وبيان الدليل واقتناع الخصم، بل إنها تعمد إلى مشاركة السامع في القول في استخدام ألفاظٍ من مثل عبتموني، لقد عبتموني، وما شابه ذلك من أسلوبٍ خطابي ومن ضمن ما جاء منها:

((وعبتموني حين زعمتُ أن التبذير إلى مال القمار والميراث إلى مال الالتقاط وحباء الملوك أسرع، وأنّ الحفظ إلى مال المكتسب والغني المجتلب، وإلى ما يعرض فيه لذهاب الدين واهتضام العِرض ونَصبَ البدن واهتمام القلب أسرع، ... ومَن لم يحسبْ الدخل فقد أضاع الأصل، وإنّ من لم يعرف للغنى قدره، فقد أذن بالفقر وطاب نفساً بالذّل... وعبتموني حين قُلت: إن فضل الغنى على القوت إنما هو كفضل الآلة تكون في الدار، إن احتج إليها استُعملت، وإن استغني عنها كانت عُدّة))[4].

وقد أورد الجاحظ قصصاً كثيرة عن البخلاء مثل قصة الكندي وقصة أبي سعيد المدائني وحديث خالد بن يزيد، ولعل قصة الكندي أطرفها ذلك البخيل الذي يزيد من أجرة بيتهِ على مقدار ما عند المستأجر من الضيوف ويكتبُ رسالة توضيحية للمستأجر في ذلك[5]، والأدهى من ذلك قوله للساكنين ((إن في الدار امرأة بها حمل والوحمى ربما أسقطت من ريح القدر الطيبة! فإذا طبختم فردوا شهوتها ولو بغرفة أو لعقة))[6]، ثم يأخذ اليمين على الساكن ويُلزمه بإيفاءه ولو بغرفةٍ

---

(1) نزهة الألباء 132.
(*) سورة الذاريات، الآية: 19.
(2) ينظر: البخلاء، 61، 48، 85، 12، 17.
(3) ينظر: مختارات من كتاب البخلاء: 19.
(4) البخلاء: 61.
(5) المرجع نفسه: 61.
(6) المرجع نفسه: 60.

على حسب قوله، ولكنه أي الكندي وعلى الرغم من بخله وشدة تقتيره وتفننه بالبخل حتى أنه بحسب وجهة نظرنا المتواضعة يقترب من بخله إلى الكدية كما هو واضح آنفاً، إلا أنه كان مفرطاً في الطيب إفراطهِ في البخل، ولحسن حديثهِ وحلو كلامهِ يحتمل أصحابه بخله وشحته[1]، أما عن "محمد بن علي المؤمل"[2]، فقد ذكر الجاحظ عنه قصة طريفة إذ بعد أن يقرر أكل سمكة بمفردهِ دون مشاركة أحد يصنعُ الجاحظ معهُ مقلباً إذ يذهب إليه بصحبة شخصٍ معروفٍ بالأكل والشراهة أسمه السدري وعليه يُصاب صاحبنا بالحُمَّى أول رؤيته لهما وبالقئ[3]، وكذا قصة "أسد بن جاني"[4]، "وتمام بن جعفر"[5]، وغيرها كثير من الأسماء جميعها تتحدث عن مواقف البخلاء بأسلوبٍ طريف ينبذ هذه السمّة ويفندها وحتى الفرق والمذاهب الدينية تدخل ضمن قص الجاحظ المتهكم الطريف من ذلك ما ذكره ((وكان رجل يغش طعام الجوهري، وكان يتحرى وقته ولا يخطئ، فإذا دخل والقوم يأكلون، وحين وضع الخوان، قال: لعن الله القدرية[*]! من كان يستطيع أن يصرفني عن أكل هذا الطعام، وقد كان في اللوح المحفوظ أني سأكله؟ فلما أكثر من ذلك، قال له رباح: تعال بالعشي أو بالغداة: فإن وجدت شيئاً فالعن القدرية وأمهاتهم))[6].

ومن الطريف أن يصدر عن البخيل تصرفاً سوياً كأنْ يُهدي غيره شيئاً مثلما فعل أبو الهذيل إذ أهدى إلى مويس بن عمران دجاجة، وأيَّ دجاجة!!! كانت ضئيلة نحيلة لا خير فيها، إلا أن الثاني لكرم أخلاقه وحسن تأدبه أبدى اعجابه بالدجاجة التي أصبحت فيما بعد ((مثلاً لكل شيء، وتاريخاً في كل شيء!))[7].

وقد تحدث الجاحظ أيضاً عن بعض البخلاء المعروفين من أمثال القاص "أبو سعيد المدائني" وكان يضع له تصنيفاً لهم أو مرتبة ينالها كلاًّ منهم بحسب درجة بخلهِ، فعن المذكور آنفاً قال أنه كان ((اماماً في البخل عندنا في البصرة، وكان من كبار المغتنين ومياسيرهم، وكان سديد العقل، شديد العارضة حاضر الحجة، بعيد الروية))[8]، ويُذكر أن المدائني كانت له حلقة يقعد فيها مع أصحابه يتذاكرون وهو لشدة بخله كان يعمل حمّالاً أحياناً كثيرة [9]، تجدر الإشارة إلى أن البخل مذموماً إذ اتصف به الرجال أو النساء على حدٍ سواء، فالعرب لا تحبّذ المرأة البخيلة خشية أن تُنجب أولاداً بخلاء، حتى أن الجاحظ ذكر أن "ثوب بن سحمة العنبري" كان قد طلق امرأته لبخلها الشديد مخافة أن تلد له البخلاء وقد انشد في بخلها قائلاً:

وحـــــديث لامجـــــةَ التـــــي حـــــدثتني تَـــــدَعُ الإنـــــاءَ تشـــــرّباً للقـــــادم [10]

إن البخيل هو من كان زاهداً في كل ما أوجب الشكر ونوه بالذكر وأدخر الأجر هذا بحسب ما وصفهُ وقلّما نجد أناساً يمدحون البخل وهذا لا يكون إلا إذا كان المادح نفسهُ بخيلاً فلا نجد أمة تبغض الكريم، بل أنها توجبه وتعظمه وتمجد ذكره بالأشعار كما فعلت الشعراء مع حاتم الطائي وكيف غدا ذكرهُ مضرباً للأمثال بالكرم. وقد فخرت هاشم على سائر قريش بالكرم فذكروا: **((نحن أطعم للطعام وأضرب للهام))**[12].

---

[1] المرجع نفسه: 61.
[2] المرجع نفسه: 76، 77.
[3] المرجع نفسه: 86.
[4] المرجع نفسه: 80، 103، 113.
[5] المرجع نفسه: 124.
[*] القدرية طائفة تجحد القدر، وترى أن المرء اختياراً فيما يعمل وفيما يترك، ويقصد بلعن القدرية أنهم اخطأوا في دعواهم لأنهم لو صدقوا لأستطاع أن يصرف نفسه عن حضور الطعام.
[6] المرجع نفسه: 124
[7] البخلاء: 111.
[8] المرجع نفسه: 112.
[9] ينظر: المرجع نفسه: 113.
[10] المرجع نفسه: 114.
[11] المرجع نفسه: 112.
[12] المرجع نفسه: 137.

وقد ذُم البخيل مثلما نجِّد الكريم وقيل أفضل الجود الجود بالمجهود [1]، أي أن يكون الكريم معدماً لا يمتلك المال ولكنه يجهد نفسه ليحقق مطالب لآخرين، وأعلى درجات الجود كما وضعتها العرب نفسها وهي الجود بالنفس إذ هو أعلى مراتب الكرم، وقد ذكر الفرزدق ذلك في شعرهِ قائلاً:

علـــى ســـاعةٍ لـــو كـــان القـــوم حـــاتم علـــى جـــودهِ ضـــنت بـــه الـــنفس حـــاتم [2]

لم يقتصر كتاب الجاحظ "البخلاء" على ذكر أمورهم الطريفة وقصصهم الداعية إلى التهكم والسخرية من باب "شرُّ البلِّيةِ ما يضحك" بل ولم يكن مقتصراً على ذكر مفاخر العرب في الكرم وذكر كرماء العرب وسخاءها ومن يجتهد بالكرم حتى يصل إلى الجود بالنفس مثل كعب بن مامة، وحاتم الطائي وغيرهما[3]، وأيضاً ناقش أمر البخل عند المذاهب والفرق ورؤيتها لهذه السمّة، بل أنه ذكر هذه المسألة وأحوالها عند غير العرب من الفرس والروم والصقالبة والزنوج حتى أنه عمل أشبه ما يكون بالموازنة في أيهَّما أبخل [4]، وقد ذكر مرادف البخل الكرم الذي مدحته العرب وآثرته على باقي الصفات، وذكر قصصاً كثيرة عن الكرم وكيف أن العرب تحيي هذه السمّة وتفخر بها، إذ هي المنقذ مثلما حدث مع ضيف الرسول الذي كذب إلا أن الرسول امتنع عن عقابه لكرمهِ وقراه للضيف[5].

كثيرةٌ هي أخبار البخل والبخلاء إلا أنه لم ينس أن ينوه على نقطةٍ مهمة على الكريم عدم تجاهلها والعمل بها مثلما أوصانا به الله ﷻ والدين الإسلامي الحنيف والرسول الكريم 6 إذ لم يفته الحديث عن اجتناب الوصول إلى حد التبذير والاسراف فقد ذكر ﷻ قوله: **﴿وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً*إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾**(*) فخير الأمور أوسطها أي لا نكن كرماء إلى درجة التصدق بالمال مثلما فعل "كعب بن مالك" وقد ناه الرسول 6 فقال له ((أمسك عليك مالَكَ))[6] ولا لأنَّ يقترب ببخلهِ ليصل إلى حدٍ لا معقول أو مقبول وهذا يذكرنا بقوله تعالى: **﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً﴾**(*) وقد قالت العرب في المعنى ذاته ((دين الله بين المقصر والمغالي))[7].

أي أن الدين هو الطريقة المثلى والخط الوسط المعتدل ما بين التقصير والغلو.

إنَّ الجاحظ أديبٌ متألقٌ بين الأدباء وقد استشف مادة مؤلفاته من بين ضروب المعرفة المختلفة وقد كانت نقولاتهِ لا من أجل النقل والعبث وإدعاء المعرفة، بل هي ضرورة لما يخدُم النص ويصلُ إلى الهدف المنشود وراءهُ والذي يبتغيه، إذ يمتلك الجاحظ من المعرفة وجدلية التفكير والإلمام الواسع العميق بالشيء من جوانبه المتعددة شيئاً كثيراً ولعل الأستطراد دليلٌ سعة المعارف وتنوعها [8].

أسلوب الجاحظ في البخلاء:

إنَّ الجاحظ كان موفقاً في رسم صورةٍ متكاملة الأجزاء لشخصية البخيل في كتابه البخلاء، وقد استند في ذلك على سرد النصوص الإبداعية التي تتجسد على شكل قصصٍ قصيرة من الواقع المعيشي، مطعّمة بالنص القرآني والأحاديث النبوية الشريفة والمأثور من أقوال العرب شعراً ونثراً. وهذه النقولات ليست من أجل النقل والعبث وإدعاء المعرفة وسعة الإطلاع، بل هي ضرورة لما يخدم النص ويصلُ بالسامع أو القارئ إلى الغاية المنشودة وراءه والمرمى الذي يعنيه ولو دخلنا إلى عمق شخصه ونفسيته لوجدنا الظرف والدعابة وروح الفكاهة ومزج الجد بالهزل [9]، ما هي إلا انعكاساً لسعة الأفق

---

[1] المرجع نفسه: 137.
[2] المرجع نفسه: 137.
[3] المرجع نفسه: 137.
[4] المرجع نفسه: 141، 142.
[5] ينظر: المرجع نفسه: 145.
(*) الاسراء: 27.
[6] المرجع نفسه: 178.
(*) الاسراء: 29.
[7] الحيوان: 1/ 179.
[8] ينظر: الخطاب العربي وخصائصه عند الجاحظ، دراسة تحليلية: 21.
[9] ينظر: الجوانب السايكولوجية في أدب الجاحظ: 29.

والثقافة والاطلاع التي مكنته من فهم البيان العربي والإعجاب به والدفاع عنه فلم تكن مؤلفات الجاحظ أغلبها تقريباً إلا محاولة ناجحة للدفاع عن العرب وتقاليدهم وفكرهم أمام طعنات الشعوبية وغيرها. وكتابه (البيان والتبيين) تجسيدٌ حيٌّ للقول.

لقد أورد الجاحظ في البخلاء كمٌّ غير قليل من القصص والأخبار والحوادث بأسلوب تهكميٍّ ساخر يحكي قصص أشهر البخلاء وأشهر القبائل التي عُرفت بالبخل، ويتحدث عن نوادرهم، التي عُرفت بالبخل والتقتير وقد أبدع الجاحظ كعادته وأجاد في هذا المُؤلَف مثل غيره إذ كان ثريّاً بمادتهِ المتنوعة ما بين القصص والسرديات التي جعلت بعض الباحثين والنقاد يرون في هذه المؤلفات بدايةً حقيقية لتاريخ السرديات العربية القديمة، تأليفاً وإبداعاً، لا نقلاً وترجمة [1]، فمؤلفاته عامةً تعدُّ سجلاً حافلاً لأخبار العرب وعاداتها وتقاليدها وهي رافد مهم للمكتبة العربية.

وفي البخلاء تحديداً حاول الجاحظ رسم حدٍ وصفي لشخصية البخيل إذ نراهُ ينتقل بالقارئ من حالةٍ إلى أخرى ومن وصفٍ لآخر بتنوع يتناسب مع تنوع الحياة نفسها وتشابكها وتعقيداتها وتباين حركة الإنسان والسلوك الإنساني فيها بتلونٍ يتآلف مع تكون الظروف المحيطة واختلافاتها بحسب المواقف فالشخصية الإنسانية كما يراها الكثيرون ومنهم علماء النفس مثل واطسن ماهي إلا (((جماع أنواع النشاط التي نلحظها عند الفرد عن طريق ملاحظتهِ ملاحظة فعلية خارجية لفترة طويلة كافية من الزمن تسمح لنا بالتعرف عليه حق التعريف أي أن الشخصية ليست أكثر من النتاج النهائي لمجموعة العادات عند الفرد))[2]، فالشخصية أسلوب إدراكي إزاء مواقف الحياة المختلفة والمترابطة مع بعضها البعض في الوقت نفسه ضمن تنظيم معين يجعل كلاً منها كلاً موحداً.

إنَّ شخصية البخيل قد تكون مكتسبة نتيجة التعامل مع الواقع المعيشي ونتيجة تراكم معرفي طويل، ولكنها أيضاً قد تكون متوارثة فكثيراً ما نجد بخيلاً يُذكرنا بأحد أفراد عائلتهِ مثل الأب أو الأُم أو الأخ، وعليه فالبخل عادة مكتسبة إلا أنها قد تكون متوارثة أيضاً.

وفي كلا الحالتين هو خصلة مذمومة غير محببة وتحديداً عندنا نحن العرب، أهل الكرم والجود والعطاء، والجاحظ في بخلاءِهِ كانت لدية آراءاً عدة بعضها مباشراً أعلنها وصرّح بها وبعضها الآخر اكتفى بالتلويح إليه والرمز وأراد بالوسيلتين نبذ سمّة البخل وكشف ما فيها من سلبيةٍ وأذىً ينعكس على صاحبها ومن يتعامل معه ويتعايش معه وقد ذكر الكثير من أخبار المقتصدين البخلاء في عصره مثلما ذكر انعكاسات حالة البخل على المجتمع من مثل بخلاء أهل البصرة، ومرو وخراسان، إذ صور أحوالهم ونزعاتهم النفسية وتندّر بأحاديثهم وشرح طريقة عيشهم وتفننهم في البخل والشح، ولكنه أي الجاحظ لم ينس الحديث عن ذكاء هؤلاء البخلاء وكيف يوظفون هذه القدرة في أعمالهم البخيلة بشكلٍ آثار المرح والسرور في نفوسنا ونحن نقرأ للجاحظ البخلاء ولكن بعد لحظةٍ من الوقت يكتشف القارئ أن شر البلِّيةِ ما يُضحك، إذ لا يليق بنا نحن العرب إلا الإيثار والعطاء.

لقد صدَّر الجاحظ كتابه برسالة "سهل بن هارون" إلى يحتج فيها للبخل وينصره وينصفه على الكرم، وقد كتبها دفاعاً عن العرب ضد الشعوبية، والجاحظ كعادته ألف كتابهُ إنصافاً للعرب ودفاعاً عنهم، لذا نراه يركز على أهل خراسان ومرو مؤكداً أصالة البخل فيهم حتى أنه أي البخل ينسحب على بهائمهم وطيورهم وما في حوزتهم من حيوانات فالديك مثلاً يأخذ الحَبّة ويلفظها إلى الدجاجة في حين ديك مرو يأخذ الحبة سلباً وغصباً من مناقير الدجاج.

إنه تحدث بسلاسةٍ وبساطة تتناسب مع كل المقامات محاولاً تفنيد هذه السمّة وإظهار معايبها وبُعدَها وغربتها عن المجتمع العربي ويدعو إلى ضرورة التخلص منها وهو يتحدث عن مجموعتين من البخلاء الأولى جاهلية لما تصنع وتتصرف، فهي تتصرف على السجيِّة دون تصنع أو تدبيرٍ مسبق، والثانية على العكس من الأولى فهي فئة تدرك تماماً معنى البخل وتعلم كمال العلم أنه عيبٌ اجتماعي ونقيصه، إذ ذكر في ذلك قوله: ((عجبي ممن خلع عذارهُ في البخل،

---

[1] ينظر: أبو عثمان الجاحظ 313، وأيضاً، ينظر: الأدب العباسي (النثر) 212.
[2] الشخصية وقياسها: 6، 7.

وأبدى صفته للذم، ولم يرضَ إلا بمقارعةِ الخصم، ولا من الاحتجاج إلا بما رُسِم في الكتب ولا عجبي من مغلوبٍ على عقله مُسخّر لإظهار عيبهِ، كعجبي ممن فَطِنَ لبخلهِ، وعرف إفراط شُحَهُ، وهو في ذلك يجاهد نفسه، ويُغالبُ طبعهُ))[1].

إن للجاحظ مجدٌ أدبي خالص نقي حُظي به فخلدهُ وأعطى قيمةٌ فنية غنية لمؤلفاته فهو لم يتعصب إلا لعروبته وقوميته العربية إذ كان بحق ((عربياً في روحه ودمه وحياته وكان يتعصب للعرب في كل شيء حتى في الثقافة والأدب في عصر كان النفوذ والسلطان في الدولة فيه للعناصر الأجنبية لاسيما الفرس))[2].

إنَّ ثقافة الجاحظ المنّوعة الواسعة وأفقهُ المتسع للمعارف واختلاف نهلهِ للمعارف إذ كان مطلعاً على علوم اليونان وثقافاتهم وكذلك الفرس كل ذلك هيئ له سُبل التمكن من الكتابة والتأليف والإبداع، في البيان العربي والدين بوصفه من المعتزلة، فكتب عن البيان العربي كتاب "البيان والتبيين" وهو أول كتاب ظهر في الأدب جامعاً لفنون البلاغة والتعبير والمجاز وضروبها وقد أشاد به أبو هلال العسكري[3]، وعدَّهُ أبن خلدون من أركان الأدب[4]، لقد انفرد الجاحظ بأنه الوحيد الذي أفرد مؤلفاً عن البيان العربي وذلك في كتابه البيان والتبيين. وقد ألف الحيوان، وهو مؤلف مهم جداً، وجميع مؤلفاته لها علاقة بالحالة الاجتماعية والسياسية وما يسودها وهذا دليل وعيه وعلاقته بالمجتمع، ولعل كتابه البخلاء إثباتٌ لهذا القول فالبخلُ مرض اجتماعي ويؤثر سلباً على الشخص والمجتمع، وهذا الكتاب هو محاولة جادة لإثبات ان البخل سمّة طارئة على العرب دخيلة على عاداتها لا متأصلة فيهم، جاءتهم نتيجة الامتزاج الثقافي والسياسي، ولحاجة المجتمع إلى تدوين نوادر العرب وذكر طريقة عيشهم واحتيالهم ومكرهم في هذا الدرب وقد تميّز أسلوب الجاحظ فيه بخفة الروح وجمال العرض ومزج الجدل بالهزل ذكر في ذلك ((لأجعل الهزل مستراحاً والراحة جماماً، فإن للجدّ كدَّاً يمنع من معاودته ولا بدَّ لمن التمس نفعه من مراجعته، وذكرت مُلح الحَرامي واحتجاج الكندي ورسالة سهل بن هارون))[5].

لقد زاوج بين الفكاهة والواقع دفعاً للسأم والملل، وقد كان سهل العبارة، مفهوم المعنى، متمكناً من القول، ينتخب من الكلمات كيف يشاء ويُركّب المفردات مثلما أراد ورغب فاللغة طيعة لينة لديه، وهذه نعمةٌ من الباري ﷻ عليه، وأسلوبه في باقي مؤلفاته فهو يميل إلى السرد وذكر القصص والأخبار، عمادهُ الاستطراد في القول وتقطيع العبارات إلى فقرات قصار، وقد أكثر من الجمل المترادفة المسجوعة حتى أصبحت سمّة كتابية لقلمه الرائع، تعكس قوة اللفظ والتبحّر والإمعان في أختيار الأفضل لفظاً ومعنىً. ومثلما كان يفكر في اختيار اللفظ والمعنى فهو في الوقت نفسه في أثر هذا المعنى واللفظ في نفس السامع المتلقي وكان يشاركه النص المكتوب بالالتفاتات البسيطة منهُ، بشد الذهن ذهن القارئ وضمان عدم ابتعاده عن النص من مثل (تولاّك الله – حفظك الله – أسمع حفظك الله– رعاك الله) الخ... من الألفاظ، وكان دقيق الاستقصاء في وصف ما يريد مدعماً قوله كعادته بالنص أو الحديث أو المأثور فضلاً عن جملٍ جميلة كانت تحمل معنى الدعاء تتخلل عباراته بين الحين والآخر، أو قد تتضمن معنى الحكمة[6]، والتي لا تخلو من فلسفة. هكذا عرض الجاحظ أفكاره وآراءه وناقشها بأسلوبٍ جدلي منطقي يتسم بالحرية ورفض القيد، وبهذا الأسلوب عرض لنا صوراً حيّة من الحياة الاجتماعية العربية وكيف تقيم العرب أعراسها وأفراحها وختانها، وحتى أحزانها وكيفية تعاملهم مع اللحوم والشحوم وطريقة تفضيلهم الأطعمة، وأذواقهم في المباني ورغبة أثريائهم في عمل حمامات خاصة في منازلهم، وإنشاء مطابخ في سطوحهم حتى أنه وصف أوانيهم وجرارهم، وذكر طريقة البخلاء في استإجار منازلهم، وهو بذلك يضعنا أمام صورة أو لنقل لوحة كبيرة، تحمل ملامح البخلاء وتصرفاتهم بشكل واقعي وتصورٍ حي وإبطال قصصه منوعون ما بين عالمٍ أو قاضٍ أو تاجرٍ أو صانع أو مغنٍّ أو إعرابي يسكن بغداد أو البصرة أو خراسان ومن خلال ذلك يسرد الجاحظ الكثير من السمّات والعادات والقيم بصورٍ مختلفة فمنهم من يقتصد بالانفاق ومنهم من يمتنع مطلقاً عن العطاء مثل قصة "مُعاذة العنبرية" ومنهم من

---

(1) ينظر: مقدمة البخلاء.
(2) الحياة الأدبية في العصر العباسي: 311.
(3) ينظر: الصناعتين: 6، 7.
(4) ينظر: مقدمة ابن خلدون: 553.
(5) مختارات من كتاب البخلاء: 54.
(6) ينظر: ضحى الإسلام: 1/ 265.

يصل بخلهُ إلى منع الخير عن الآخرين حتى لو لم يكن هذا الخير منه [1]، ذكرنا أن ذلك السرد كان ضمن قصٍ جميلٍ شيق مكتمل العناصر، فالزمان هو العصر العباسي، والمكان هو بغداد حاضرة الدنيا، وأحياناً البصرة، أو خراسان، أو البادية أو قد تكون الأمكنة أضيق فتتحدد في دار صديقٍ أو حمّامٍ في باب الكرخ أو حتى بستان، وقد وُفق في تحليله لنفسية البخلاء وتصوير ما يشعرون به من أحاسيس وعواطف ومن غضبٍ لعطاء أو سرورٍ لمنع، وقد وصف أدق المتعلقات التي تجعل من الصورة كاملة الملامح وهو بهذا أقترب كثيراً من الواقعية الشفافية في رصد ظاهرة خطيرة من ظواهر الحياة فهو ((يعرض عليك بخلاء في غير تصنُّع ولا مُداراة))[2]، ويعلل ذلك بالقول ((إنه يريد أن يجعل الأدب صورة من الواقع، وهو لذلك لا يستعين على تناول بخلائه بالتاريخ أو ذاكرة الماضي، وإنما يستعين بمفكرة الحاضر والعصر الذي يعيش فيه، وقد عرف كيف ينقله إلينا بجميع طبقاته وأفراده وملامحهم وخصائصهم النفسية))[3].

وخلاصة القول أن الجاحظ في جميع شخصيات قصصهِ حاول أن يكون راوياً مصوراً للحدث، دقيقاً في الوصف كيف لا وهو منذ صغره عُرِف بأنه ((قوي التصور، دقيق الملاحظة، لقفة، لا يكاد يفوته شيء مما يجري أمامهُ دون أن يرتسم في ذهنه في دقة تكتمل بها أجزاء الصورة وخطوطها وملامحها، وفي قوة تكفل لها البقاء في ((خزانة الصور العقلية)) ذلك العهد الطويل المختلف))[4].

إنَّ مؤلفات الجاحظ لم تقتصر أهميتها على آراءه فيها وخصوصية أسلوبه وقدرته على الوصول إلى رضا القارئ بل تتجاوز ذلك إلى النقول التي لولاه لما عثرنا عليها فمؤلفاتهِ تدخر ما خَفي علينا من صفحات التراث العربي، ودقائق القضايا الفكرية والثقافية التي اشملها النشاط الإبداعي والاجتماعي والسياسي والثقافي على نحوٍ عام في الحياة العربية، وهو بذلك يمتلك آراءاً حرّة مباشرة صرّح بها لقارئيه وأخرى اكتفى بالتلويح والرمز لها.

الخاتمة:

لا أجد ما أقوله للقارئ إلا أن هذا البحث نواة أو بذرة تتبع منها بحوث جدّية أخرى حول الأدب العباسي عامة والجاحظ خاصة.

ومن خلال السطور الآنفة نرجو أن نكون قد وفقنا في رسم تصورٍ دقيق لمنظومة الجاحظ الفكرية وتصوراتها عن البخل والبخيل وكيفية تناوله لهذه الظاهرة التي تُعد عيباً ورذيلة على العربي وقد صوّر لنا صورة البخيل بأسلوب تهكمي ساخر علّهُ يخفف بذلك عبأ هذه السمّة وثقل أتصاف البعض بها علماً أنه أكد في غير موضع أنها طارئة على العرب لا مؤصلة فيهم وجاءتهم عن طريق التزاوج الحضاري والتمازج الفكري وتلاقح الحضارات.

إنَّ الجاحظ قلم نشيط وقابلية سرمدية، كان حذقاً ذكياً شديد الحيوية متدفق الحس شغوفاً للمعرفة، سريع البديهية، شديد الحب لعروبته والحرص على الدفاع عنها وشديد التعلق بالحياة وشغف العيش ووصفها والحديث عنها لذا نجد أن مؤلفاته اختلفت وتعددت لتشمل جوانب الحياة كافة فقد كتب عن البخلاء وعن النساء وعن الحيوان مثلما أَلف في الفلسفة والدين، وعليه يمكن أن يصنف أدبه أدباً واقعياً ومرآة تعكس صورة الحال المعاش إذ هو أقرب ما يكون من الحياة والناس في أدبه ولعل ذلك ما جعل أدبهُ أدباً خالداً.

إن من يقرأ أدب الفيلسوف الجاحظ أديب العرب واسلوبه في المحاججة والتوثيق يجد أن كتبه ورسائله حواريات قائمة على أسس فكرية وجمالية واجتماعية تمتع بإبداع مسدد بقوة الفصاحة والبيان والبلاغة بما هيئ له الله ﷻ موهبة فطرية.

وبعد، فنرجو أن يكون حديث الجاحظ عن البخلاء وذكر طبقاتهم وأصنافهم، وبعد تحليلنا لهذا نأمل أن تكون هذه الأسطر وافية ورافداً حياً للقارئ والمريد، وما توفيقي إلا بالله العلي العظيم عليه توكلت وإليه أنيب وهو حسبي.

---

[1] ينظر: الحيوان: 113، 117، 121، 124، 125، 191، 221، وغيرها كثير.
[2] الفن ومذاهبه في النثر العربي: 163.
[3] المرجع نفسه: 163.
[4] الجاحظ، حياته وآثاره: 93.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

1- ابو عثمان الجاحظ، د. عبد المنعم خفاجي، دار الطباعة المحمدية بالأزهر بالقاهرة، د. ت.
2- الأدب العباسي (النثر) للدكتور سامي يوسف أبو زيد، دار المسيرة للطباعة والنشر، عمان ، 2011م.
3- الاعلام لخير الدين الزركلي.
4- الاغاني، لأبي الفرج علي بن الحسين الاصبهاني، طبع في القاهرة مطبعة التقديم، سنة 1323هـ.
5- البخلاء، تحقيق طه الماجري، مطبعة دار المعارف، القاهرة، 1963م.
6- البيان والتبيين: لأبي عمرو عثمان بن بحر الجاحظ (255هـ) تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (1948، 1950) .
7- الجاحظ، حياته وآثاره، للدكتور طه الماجري، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية.
8- الجوانب السايكولوجية في أدب الجاحظ. د. نوري جعفر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام الجمهورية العراقية، سلسلة دار الرشيد للنشر، 1981م.
9- الحياة الأدبية في العصر العباسي للدكتور محمد خفاجي، دار الوفاء، الأسكندرية، 2004م.
10- الحيوان، الجاحظ (255هـ) تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى الحلبي سنة 1938- 1945.
11- الخطاب العربي وخصائصه عند الجاحظ، دراسة تحليلية، د. زينب عبد الكريم الخفاجي، مؤسسة العهد الصادق الثقافية، قسم الدراسات والبحوث، مطبعة السدير، الطبعة الأولى، 2010.
12- سفينة البحار، للشيخ عباس القمي (1294- 1359هـ)، الجزء الأول، تحقيق مجمع البحوث، طبع مؤسسة الطبع والنشر في الاستانة الرضوية المقدسة.
13- سمط الآلى: للوزير أبي عبيد البكري الأويتي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1936م.
14- الشخصية وقياسها، د. لويس كامل، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1959.
15- ضحى الإسلام، لأحمد أمين، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، الجزء الأول سنة 1933م والثاني 1935 والثالث 1936م.
16- الكامل في التاريخ، لأبي العباس بن يزيد الأزدي المبرد، طبع في الاستانة، سنة 1286هـ، وطُبع في سنة (1864- 1881م) ثم طبع في القاهرة مراراً.
17- كتاب الصناعتين في النثر والشعر، لأبي هلال العسكري (395هـ)، تحقيق محمد البجاوي، ومحمد أبي الفضل إبراهيم، القاهرة، 1952م.
18- المحاسن والمساوئ لإبراهيم بن محسن، البيهقي، نشره شمالي، طبعه في القاهرة سنة 1325هـ.
19- مختارات من كتاب البخلاء، للدكتور عناد غزوان إسماعيل، والدكتور جلال الخياط، والدكتور علي عباس علوان، دار الجاحظ للنشر، منشورات وزارة الثقافة والاعلام- الجهورية العراقية 1401هـ.
20- معجم الشعراء: لأبي عبد الله بن عمران المرزباني طبع في القاهرة، سنة 1354هـ.
21- مقامات البديع، المقامة الجاحظية.
22- مقدمة ابن خلدون، تحقيق، د. علي عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي، الطبعة الأولى، 1960م.
23- نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري، تحقيق د. إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الطبعة الثالثة، الأردن، 1985م.